بحث فقهي ٣

الولاية في الشريعة الاسلامية
العائلة

بقلم فضيلة الشيخ: سليمان المدني

نعود فنقول ان العائلة التي يكونها الانسان عن طريق الزواج بشخص آخر هي العائلة (الفرع) واطلقنا عليها اسم العائلة (الفرع) لانها منحدرة عن عائلتين سابقتين ساهمتا في الاعداد لوجود هذه العائلة • فهل يا ترى تتمكن هذه العائلة الجديدة ان تستقل تمام الاستقلال عن العائلات السلالية التي تفرعت منها ؟

للاجابة على هذا السؤال لابد من دراسة الشخصين اللذين اشتركا في تكوين العائلة وقد قلنا سابقا ان الفرد يوجد اولا ضمن عائلة هي التي تنقله من دور الفردية الى دور الشخصين عن طريق التربية والتثقيف الاجتماعي فهل يا ترى في محيط يجري فيه التفاعل الاجتماعي وفق عرف خاص هو بمثابة الشريعة في تلك العائلة فهناك ذوق موحد ونظرة واحدة في التحسين والتقبيح واتفاق مسبق على مايجوز وما لايجوز ارتكابه وما يحسن اظهاره وما ينبغي ستره ، اوامر تتلاحق ونواه لا تنقطع ، يشب هذا الانسان وقد اتسم سلوكه وفق هذا الطابع المعين الذي يغدو بسبب الممارسة شيء مألوف لايحس بوطأته ولا يتبرم من ثقله والذي يعين الانسان على التكيف ومن هذا الاطار العائلي هو التقارب في الاعراف والعادات بين عائلته والعائلات المجاورة لها في السكن فالعائلات المتقاربة في السكن تكون عادة متقاربة في الاعراف وان كان لابد من المميزات بين عائلة واخرى • هذا الشخص الذي عاش ضمن عائلة معينة مدة طويلة من الزمن حمل بتركة حضارية ضخمة فعن طريق التعويد على سلوك معين في الواقعة المعينة يمتص الانسان الاراء والافكار حتى تصبح له ملكات نفسية يصدر عنها في تصرفاته من دون روية او تعقل •

بعد كل هذا يخرج الشخص من عائلته ليلتقي عن طريق التعاقد مع شخص آخر عاش في عائلة اخرى ليشاركه في بناء عائلة جديدة التي لانفترض ان تقوم فيها الحياة الاجتماعية الا طبق السبقات الحضارية التي يحملها كل من الشريكين •

واذا كانت المثبطات والموانع الحضارية لدى كل من الزوجين ليست اقوى من المبررات والمقتضيات فان التكييف بينهما يكون ممكنا وهذا لايتم الا في حالة التقارب بين وجهات النظر الى الامور • او يكون الزوجان قد بلغا حدا من النضج يؤهلهما للتنازل عن بعض المواسب التربوية •

حضارة العائلة الجديدة أن تكون من امتزاج حضارتين من عائلتين مختلفتين ، نقول هذا مفترضين ان القوة الشخصية للزوجين متساوية او متقاربة • اما اذا كان احد الزوجين اقوى شخصية من الطرف الاخر فان حضارة عائلته التي انحدر منها تكون هي المسيطرة على الثقافة الاجتماعية للعائلة الجديدة لكن هذا لايعني انعدام تاثير الطرف الاخر مهما كان ضعيفا في الحياة العائلية •

وفي قدرة الشريكين على التكيف مع بعضهما البعض أو يحجزها عنه يكمن سر استمرار الحياة العائلية وانهيارها والى مدى هذا التكيف يكون مدى التلاحم الاسري في العائلة الواحدة •

والواقع ان الدراسات الاجتماعية لم تستطع حتى الان ان تستنتج مقياسا للتلاحم الاسري فأي سبب يفترضه الانسان مقياسا للتوثيق عرى الحياة الزوجية يجده يعطي نتائج عكسية في كثير من الاحيان ولنضرب امثلة على ذلك علها توضح المقصود من هذا الكلام •

المعرفة :

قد يظن كثير من الناس ان الزوجين اذا كانا متعلمين يكونان اقدر على التعايش منهما لو لم يكونا متعلمين الا ان هذه النظرة لايمكن تصحيحها الا في حالات قليلة فكثير من الزيجات تنهدم الاختلاف الزوجين المتعلمين في الاراء السياسية او التربوية ولاختلافهما في حدود التقيد بالواجبات الزوجية فكثير من الرجال لايوافق ان تناقشه شريكته في طريقة ادارة البيت أو تربية الاولاد وهذا بدوره ينطبق على كثير من النساء اللاتي يرين أن ادارة شئون البيت والاولاد هي من اختصاصهن ولا حق للرجال بالتدخل فيه ، بينما يكون من الممكن ان تصبح حياة مثل هذا الرجل مع امرأة امية لاتناقش اوامره أقوى تلاحما من حياة مع زوجة مثقفة وكذلك العكس •

العامل الاقتصادي :

وهو من اهم الامور التي ركز على دراستها علماء الاجتماع وخاصة في اوربا وامريكا وتتبعوا تاثيره في الحياة الزوجية ومع ذلك فلم يجزموا بكونه مقياسا لقوة التماسك بين الزوجين الا في حالة كون الزوجين ثريين ولا في حالة ثراء احدهما او فقرهما جميعا •• فهو قد يؤدي الى تقوية التماسك في بعض الاحيان لكنه قد يؤدي الى اضعاف التماسك او انعدامه بالمرة •• فزوجين غنيين يجنح كل منهما بماله وثروته لابد ان يظهر على كل منهما عدم الاكتراث بالاخر الامر الذي يسبب انفصام الرابطة الزوجية بينهما وقد يحدث العكس من ذلك حيث يرى كل منهما ان مؤنة الاخر مرفوعة عنده وان لايسأل عنه جاء ام ذهب •

العامل الديني :

وهو اكثر العوامل انضباطا في هذا الصدد وان كان لايمكن القول بانه عامل مطلق فالمشاهد ان الزيجات التي تكون بين شخصين من دينين مختلفين تنتهي بالطلاق او تميع العلاقات الاجتماعية بين الزوجين ، ولست انفي بهذا وجود زيجات استدامت الى نهاية حياة اصحابها مع اختلاف الدين بينهما ولكني اقول ان غالبية العوائل تنحل بسبب اختلاف الدين ويتفرع من العامل الديني عامل آخر هو عامل المحافظة او عامل الموضة • ونقصد بهذا العامل هو محافظة الزوجين على الاوامر الدينية والخلقية والخروج عليها فالملاحظ ان كثيرا من حالات الطلاق التي تقع في البحرين اليوم ناتجة عن هذا السبب •• فمعظم طلبات الطلاق التي تقوم بها النساء تبرز عادة ان الزوج مدمن للسكر وانه يطلب المعاشرة الزوجية على نحو ما يرى في افلام الجنس او ان ينشأ علاقات غير شرعية مع نساء اخريات •

كما ان كثيرا من طلبات الطلاق التي يقدمها الرجال تبرر بأن الزوجة مسيئة للعشرة وانها لا تقوم بالواجبات الزوجية وانها تصر على الخروج الى اماكن غير مرضية وانها تهمل تربية الاولاد بسبب انشغالها بالعمل •

وهناك حالات طلاق وقعت لان الزوج يريد من شريكته ان تندمج في الحياة العصرية فتصحبه في الاماكن العامة وان تقدم القهوة لاصدقائه وهي ترفض ذلك •

العامل المرضي :

وهي الامراض النفسية لايمكن ان تكون مقياسا عاما للالتحام في الاسرة فعلى الرغم من ان الحياة تكون صعبة مع شخص مصاب بالعصاب والسادية فقد وجدت نساء كثيرات يرغبن مثل هذه الحياة ويأبين اجراء الطلاق رغم كل محاولات الاهل وما يصدق على هؤلاء النساء يصدق ايضا على كثير من الرجال •

مقاييس التلاحم او التفكك الاسري كلها نسبية وذلك راجع الى الاختلاف الشديد في طبائع الناس وميولهم وامراضهم النفسية والعقلية •

تاريخ العائلة :

مما انتهينا اليه من بحث تقرر ان العائلة تنشأ من الزواج •• وان الزواج هو الطريقة الوحيدة لانشاء العائلة من اول يوم تكونت فيه على وجه الارض •

ونحن لانزعم ان الزواج كان بطريقة واحدة في كل زمان ومكان ، فان العادات والاعراف والمواصفات قد نوعت طرائق الزواج عبر التاريخ وبسبب ذلك تنوعت اشكال العائلة في سائر المجتمعات وسنوفي هذا الموضوع عندما نتكلم عن أشكال العائلة انما الشيء الغريب في الموضوع ان بعض الباحثين يدعي بانه مر على الانسان حين من الدهر لم يكن الزواج فيه هو الطريق الوحيد لانشاء العائلة بل شاركه في ذلك طريق الصيد والقنص •

يقول مؤسس مدرسة التحليل النفسي (فرويد) ان الانسان مر بفترة من تاريخه كان الرجل يقتنص المراة من الغابة اقتناصا كما يقتنص اليوم سائر الحيوانات وان عدد زوجات الرجل لاتحدد الا وفقا لقوته وقدرته غير انه لايوجد ما يبرر هذه الدعوة لانه في التاريخ الديني ولا في الاساطير الوثنية •• نعم مرت البشرية بفترات من تاريخها تعتبر فيه البيت مملكة للرجل الذي سباها ، وقد كان هذا شائعا في كافة الامم وذلك لان القانون العسكري كان يعتبر الاسير رقيقا اذا لم يفده قومه ، وكانت المراة تشارك الرجل الياساء في هذا الامر • والذي نعرفه ان الاسلام قد قلص ذلك الى اقصى حد ممكن فلم يعتبر المراة الجالسة في بيتها اسيرة وانما قصر ذلك على المراة المحاربة في الجيش • اما الرومان فقد ظلوا يعتبرون اهل البلد المغلوبة اسرى الى اخر عهد دولتهم وما واقعة انطاكية بخافية على احد •

نرجع الى العائلة فنقول ان التاريخ المكتوب والاساطير والحفريات كلها تثبت ان العائلة تشكلت في اول يوم من تاريخها على اساس الاقتران بالزواج وعن طريق العائلة الاولى انبثق سكان العالم أجمع وفي طول هذا التاريخ المديد كانت العائلة موضع تقديس عند جميع الشعوب وللزيادة في الاحتياط بصيانتها وحمايتها احيطت بكثير من الطقوس الدينية والعرفية واعتبر كيانها اخلاقي لايسمح بمسه او تعديله • ولم يذكر التاريخ ان العائلة قد تعرضت لاي اهتزاز عبر الادوار التي مر بها المجتمع البشري الا مرتين •

المرة الاولى كانت في ايام اليونان وفي العهد الارستقراطي على الاخص فقد طالب افلاطون بشيوعية الجنس للفلاسفة على اساس ان كل نساء الشعب نساء لهم وانهم يختارون الصالحات من النساء لهؤلاء الفلاسفة في موسم معين ويؤخذ الاولاد الذين ينتجون عن هذا اللقاء لتربيتهم تربية خاصة •

المرة الثانية فقد كانت في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين فقد طالب كل من ماركس وانجلز بوجوب الشيوعية في النساء على اعتبار ان اختصاص رجل معين بامراة معينة نشأ من العهد الاقطاعي والرأسمالي وانه يدل على الملكية الخاصة التي تأباها الجدلية •

وعندما قامت الثورة البلشفية في روسيا حاولت تطبيق هذه الناحية من ضمن تطبيق المذهب الماركسي ككل ، غير انهم لم يفلحوا في هذا الشأن ، كما خشوا من جراء ذلك انتشار الاوبئة والامراض فاكتفوا بمنع العقد لدى علماء الدين واسسوا لذلك مكاتب خاصة يجري فيها التعاقد •• والملاحظ على هاتين المحاولتين انهما انتهتا بالفشل فلا افلاطون تمكن من تحقيق ما طالب به في جمهوريته ولا لينين استطاع تطبيق مذهب استاذيه وبقيت العائلة قائمة الى الان كمؤسسة اجتماعية داخل الستار الحديدي •

انما الخطر الحقيقي الذي تواجهه الحياة العائلية والذي يعتبر اماتة بطيئة للعائلة هو التحلل الخلقي الذي تحدى موضة العصر في المشرق والمغرب • ومن يلاحق وقائع الطلاق التي تجري في العالم يهوله ازديادها المطرد كما ان صدور بعض القوانين التي تجيز التعاقد بين افراد الصنف الواحد من الناس فهو معول هدام في كيان العائلة •

اكثر الشباب في هذا اليوم ثائر على كل ما هو موجود في المجتمع بما في ذلك النظام العائلي وان كان لايدري هذا الجيل ماذا يريد •• انه يرفض ويتخذ الرفض نهاية لتفاعله الاجتماعي وهذا هو الخطر المهدد كيان المؤسسات الاجتماعية كافة بما في ذلك العائلة • ذلك ان الثائر الايجابي يسعى لتحقيق امر معين واستبدال اطار اجتماعي بشكل اجتماعي آخر • اما الثائر السلبي فهو يهدم ما عنده والايشيد بدله شيئا وانما يرفض ما هو موجود وحسب •

هذا الداء الذي اوجدته الصهيونية في بلاد الغرب وصل اليوم الى بلادنا وحول كثيرا من القوى الشابة التي كان بالامكان ان تفيد في تطوير مجتمعنا ودفعه الى الامام الى ادوات هدم وتدمير باسم التقدم والحرية • وهذا هو الخطر الوحيد الذي يحيق بكيان العائلة